زكريا ضاحى توفيق

فَصَبْرٌ جَمِيل

قصص قصيرة

الطبعة الأولى يناير 2018

بطاقة الكتاب

المؤلف : فَصَبْرٌ جَميل

المؤلِّف : زكريا ضاحى توفيق

التصنيف : قصص قصيرة

رقم الإيداع : 2018-2108

عدد الصفحات : 52 صفحة

رقم الإصدار الداخلي : 30

تاريخ الإصدار الداخلي : يناير – 2018 الطبعة الأولى

الإشراف العام : الشاعرة سميرة محمودى

دار النيل والفرات للنشر والتوزيع

سجل تجارى : 13242

بطاقة ضريبية : 165-5-00031-572-01-35

رقم التسجيل : 544-662-202 2017-7

E-mail: alnile waalforat@yahoo.com

twitter: النيل والفرات

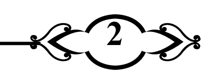
youtube: alnile waalforat@yahoo.com

facebook: alnile wa alforat

هاتف : 01202541192 - 01116202218 - 01011256943

الشرقية - العاشر من رمضان - مجاورة ١٣ - عقار ٣٠٤ - الدور الثانى - أمام سنتر ١٣

ALNILE WAALFORAT دار النيل والفرات للنشر والتوزيع أسسها الشاعر ناجي عبد المنعم



إهداء إلى

****

مَنْ غَرَسَ سَنابِلَ الأمل في طفُولَةٍ جائعة

مَنْ ألبَسَنِي ثَوبَ القنَاعَةِ في سنواتٍ قاحلة

مَنْ رَبَّانِي وَأدَّبَنِي ولو بثيابٍ بَالِية

مَنْ عَلَّمَنِي أنَ السعادةَ في الأخرة

إليك رَبِّي مُتَضَرِّعًا أنْ تُلبِسَ

أبي , وأمي ثَوبَا الصحةِ والعافية.

زكريا

(1)

طُفُولَـةٌ بَائِسَة

****

يقولون : (ومن الحُبِ ما قَتل). أتفق تماماً مع هذه المقولة لكن اسمحوا لي أن أقول : (ومن الفقر أيضاً ما قَتل) هذا ما أسرده لكم عن طفل عانى الأمرين رضع الفقر .. جالسه.. صاحبه , بل , ومشى معه , وعندما يحل الليل يلازمه حتى بفراشه في لحظة يحتاج فيها ذاك الطفل للسكون , والهدوء كي يخلدَ إلى نوم عميق كم تمنى أن تكون نومته الأخيرة .... يا إلاهي ! ألهذه الدرجة وصلتْ أحلام مُرَاد؟! نعم.. وأكثر حيث عاش ذاك الطفل نحيف الجسم ذابل العينين داكن البشرة مُجَعَّد الشعر جامد الملامح مهلهل الثياب طفولة بائسه حقاً فقد كان غذاؤه , وأسرته على الصدقات التي تأتيهم في الأعياد , وغيرها من الأيام المباركة , فاللحم بالنسبة لهم كان وجبة سنوية ويعلم الله لست مُبالغاً في ذلك. أمَّا ثوبه القديم البالي فقد كان يتبدَّل كالثُّعبان كل عام عندما

تقوم بعض الجمعيات الخيرية بحصر أسماء من يستحقون لتلك الثياب وبالطبع كان (مُرَاد) يتصدر القائمه

يحدثني (مُرَاد) عن نفسه شيئاً بالنسبة لي مضحكاً قد لا يُصَدَّق أما بالنسبة لهُ واقع مرير مؤلم يقول , والعتبة على الراوي : (ارتديت ترنك من الصف الأول, وحتى الصف السادس الإبتدائي كانت جدتي قد أهدته لي بعد عودتها من موسم الحج) . شئ حقيقي مؤلم إنْ صَدَقَتْ روايته ليس لارتدائه الثوب ست سنوات , ولكن لعدم نمو جسده طيلة هذه الفترة بالنسبة لأطفال جيله شئ مُخِيف , ومرعب حقاً , ومن جُمْلَة ما أفضي لي مراد من جُعبَتِه شيئاً أخفاه عن الجميع لكنَّه فتح قلبه, وعقله لي , وباح بأسرار, وحقائق أراد ان يقرأها, ويعرفها كل من عاش تلك الأوجاع حدثني بنبراتٍ هادئة فيها من الوجع ما يكفي: (أكثر شئ كان يؤلمني بالمدرسه عندما يقوم المُعَلِمُ المُختَصُ بالنداء على أسماء الطلاب الذين لم يسددوا رسوم الكتب , وبالطبع أكون أنا في المقدمة , وينظر لي جميع زملائي على أنِّي مِسْكِين بل كان البعض يظن أنِّي يتيم فتطاردني عيونهم بين المُشْفِق عَلَّي, والساخر مِنِّي شعور قاتل بكل معنى الكلمة , وما يزيد الطين بِلَّه أن أُطرَدُ من المدرسة أمام الجميع , وكأني مجرم

أو سارق فتنهال دموعي من قلبي قبل عيني , وتغسل فكري المُنهَك , وجسدي الهزيل الذي لا يحتمل تلك الصدمات والرجَّات فأُصبحُ بين نارين... إما أن أجلس أمام باب المدرسه حتى أعود كسائر الطلاب , ونار العوده إلى المنزل فأجدُ الضرب والسُبَاب ظناً مَنْ أهلي أنَ ِي قد هربت من المدرسه رحماك يا رب ! فأنا لم أهرَب بل طُرِدتَ وهربَ كبريائي وحيائي أمام الجميع فالكل يريد ان يعرف ...

من أبي ؟ من أمي ؟

لِمَا ألقيتموني في جحيم القيل والقال ؟ وأنتم صامتون خلف الجدران, وتعلمان جيداً ما سوف أُعانيه رحماك يا رب ! أتعذبني أم تطهرني ؟ إن كان عذاباً فبأي ذنب اِقترفه جسدي الهزيل الذي لا يتخطى العشر سنوات، وإن كنتَ تطهرني فمن أي معصية ؟ فأنا مازلت لم يجري عَليَّ القلم!) . كل هذه أفكار تزاحمت بفكر(مُرَاد) حتى كاد أن يُجَنَ , وزاد (مُرَاد) في الفضفضة , فكشف خبايا طفولته المؤلمة مُحَدِّثني عن شجار والده , ووالدته الذي لا , ولن ينتهي كل يوم , بل وكل ساعة , بل قُلْ دائماً , وأنهما يَصُبَّان عليه جام غضبها بالضرب المبرح بالأيدي , والعصا بل بالنِّعَال, والأحذية أحياناً كثيره رحماك يا رب! إهانات بالمدرسه,وبالبيت من

يتحمل هذا الجحيم الأُسري , والمجتمعي ؟! بل والعاطفي أيضاً.

اختتم (مُرَاد) حديثه عن طفولته بدموع انسالت منه كالنهر الجاري , ونظرات اِغرورقت بالدموع , وبُحَ صوتُه فلم يستطع الحديث ليخفي عَنِّي مزيداً من الأسرار التي كنتُ أود أن أدونها كي تكون مَرجعاً لكل من ذاق طعم الوجع في حياة قاسية لا ترحم ضعاف الروح , والجسد فَمَسَحْتُ بيدي عَلى رأسه , وضَغَطّتُ بيدي على راحتيه , ثمَّ اصطحبته إلى حيث منزله الكائن بقريته حيث جمال الطبيعة وهدوء المكان

وودعته بابتسامه هادئه , ونظرات فيها من الشفقه , والرحمة ما يكفي لإدخال الرضا على قلبه عُدتُ إلى منزلي وجلستُ أحدِّثُ نفسي , ودار في خاطري حكاية ذاك الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره فكيف لهذا الطفل الذي غرستم فيه الخوف , والجهل , والمرض , والذل , والقلق , والصراعات النفسية نطلب منه أن يواجه تحديات الحياة ؟! حقاً طفولة بائِسَه . فانظروا وتأملوا يا من تتمتعون بالصحة والعافية , وتسكون القصور, وتعُج حياتكم بالنعم , وتركبون السيارات الفارهة, وتلبسون الالوان الزاهية أليست كل هذه نعم تستحق الشكر؟! بل وأكثر من ذلك , فالحمدلله لك ربي

على جليل نعمك , وعطائك حمداً كثيراً حتى يبلغ الحمد منتهاه ومرت الأيام , والسنون وتجمعني الصدفة بل والقدر مرة ثانية بمُراد ولكن هذه المره تبدَّل حاله كثيراً اشتد عُودُه وأشرق وجهه , ولمَعَ شعره بدَّلَ ثيابه بثوب أكثر أناقة من الذي رأيته به منذ بضع سنوات عندما رأيته , والتقت عينانا عرفني , وارتسمتْ الابتسامة على وجهه وكأنه وجد كَنزاً ضائعا من سنين مشى إلي بخطوات متسارعه قال صديقي : صافحَنِي بحرارة بالغه عانقني بشده قائلاً : اشتقت لك كثيراً اصطحبني إلى كافتريا الجامعة مُستطرداً حديثه : مازال لقاؤنا منذ سنوات عالقاً بذاكرتي كأنه اليوم فقاطعته قائلاً : حدثني عنك يبدو أنك اليوم أفضل من الأمس تبسم مُراد : قليلاً : دخلت الجامعة , وتعرفت على أصدقاء جُدد حياة جديدة , وبيئة مختلفة تماماً عن طفولتي البائسة استطاع أصدقائي صابر , ومحمود , وكريم , وغيرهم الكثير كذلك أخوتي بعد أن كَبِرُوا , واشتدَّ عُودُهم إخراجي من حالتي النفسية السيئة , ولا أُخفي عليك سراً فقاطعته مداعباً : أصبحت أفضل مِنِّي يا (مُراد) . فضحك , قال مُداعباً أيضاً : أحسن منك قليلاً . فوضعت يدي على مِنكَبِه , وقلت له : ما السر الذي لا تخفيه علي يا صديقي ؟ فبدته نظرته لي بدمعةٍ حاول اخفاؤها عنِّي فبددتها أنا مبتسماً : يبدو أنك

لقيت كَنزاً . فتبسم : نعم سنقتسمه سوياً. (بالليل أعمل بمطعم صغير اتحصل منه على ما يكفي ليومي , واحتياجاتي وفي الصباح أذهب لأتحصل على دروسي بالجامعة , فقاطعه أنا: يا إلاهي حياة قاسية من نوع أخر! يبدو أن الفقر أقسم ألا يفارقك ! فتبسم (مُراد) نعم بيننا عِشْرَة عُمْر لكن هذه المرة لستُ يائساً , ولا خجولاً لأن أصدقائي كَبِروا , وتغير تفكيرهم , وعلموا أن الحياة قاسية على الجميع , ولكن كل بطريقتها الخاصه بالأمس كنت كطائر فقد جناحيه أما اليوم أستطيع أن أطير وحيداً فقاطعته مداعباً : تطير خَلْفَ عصفورتك خَوفاً عليها أن يغازلها أحد فضحك (مُراد) : لا بل أُحَلِّقُ خَلْفَ حُلمي الضائع يوماً ما سأجده , أعانقه كثيراً تحدثنا طويلاً,وباح لي مراد بكل ما يخفيه في قلبه , وما يدور بخياله يا إلاهي! دَقَّتْ الساعةُ الرابعةُ عصراً مَوعِد استقبال أخي بالمطار , وعندها وَدَّعتُ (مُراد), وتواعدنا أن نظل على تواصل مستمر فطلب رقم هاتفي تصافحنا , مضى كُلٌ مِنَّا إلى حُلمِه فالأحلام لا تعرف المستحيل. تأكد عزيزي القارئ أنَ صاحب الحُلم سيصل رغم ما نقاسيه من ظروف , ورغم مغريات الحياة فقط اِغْرِسْ البذرة , واسقها حتماً يوماً ما ستنبت , وتجني ثمار ما غرست شهداً.

فالعظماء لم يولدوا كذلك بل عاشوا نفس ظروفنا القاسية حاولوا جاهدين على أنفسهم بالعمل , والجد , والمثابرة حتى كان لهم ما أرادوا فالسُلَّم لابد أن نصعده درجة درجة

حتى لا نسقط من أعلاه ونندم على تسرعنا فعندما كُنَّا أطفالاً تعلمنا كيف نحبوا ثم مشينا بعدها تسارعت خُطانا إلى ما نصبوا , ونريد فمِنَّا من وصل للقمة , ومِنَّا من ظل مُلازماً للقاع . إنها الإرادة يا عزيزي ....فنيوتن عندما سقطتْ فوق رأسه التفاحة لم يأكلها , ولكن تسآل لما تساقطتْ بشكل عمودي , فاكتشف قانون الجاذبية الأرضية الذي غيَّر مجري الحياة .

(2)

(عَلَى المَقْهَى)

****

في أمسية شعرية كعادتي مع أصدقائي على إحدى المقاهي المطله على النيل حيث جمال الطبيعة, وعراقة المكان قال صديقي (باسل) : ويتميز بخفة روحه , وحبه للدعابه , والمرح (على شط بحر النيل بتمشى أنا , وأميل) . فأضحكنا جميعاً حيث كان مولعاً بالشعر رغم أنه لا يجيد كتابته فيدخل البحر في النيل , ويوقف العصفور على أسلاك الكهرباء صور عجيبة فعلاً يا باسل اِعتزل يرحمك الله . أما (منير) كالعادة يُتحفنا بصوته الخَشِن , وأغانيه التي اِعتاد أن يكتبها بنفسه, فعندما غنى (أحلى حاجه في الصحاب عشوه حلوه كفته , وكباب , وقعده رِوشَة على قهوه بلدي مشاريب كتير من غير حساب). فقام صاحب المقهى بطردنا ليس لكلمات

الأغنية فقط , ولكن لفظاعة صوته شئ مزعج حقاً . لقد نصحته كثيراً أن يبحث عن موهبة أخرى غير الغناء يا (منير) كفاك غباء .

أمَّا (هادي) فكان اسم على مسمى يجيد الصمت , ويفضل الاستماع كثيراً رغم ثقافته العاليه يا الله حقاً رائعة الصداقة الأُخُوَّة , والأصدقاء عندما يكون بينهم جو من الحُب , وروح الدعابة , والمرح وما هي إلا لحظات على طردنا من المقهى اقترح علينا (باسل) أن نكمل سهرتنا عنده لقد كُنَّا نخاف من والده حيث صوته العالي , ونظراته المُريبة لنا , وشجاره المستمر مع أم باسل بسبب أكلها المُفرِط , وبدانتها العاليه بعد أن كانت وزن الريشة . المهم .. ذهبنا إلى المنزل ,ومن حُسن الحظ أن والد باسل كان نائماً فأدخلنا (باسل) إلى حجرته الغير منظمة, وقد تعودنا على أهماله , وتسامرنا قلَّبنا شريط الذكريات حتى ابتهالات الفجر , وعلت ضحكاتنا فجأة تم دُفِعَ باب الغرفة بقوة يا إلاهي استيقظ والد باسل ! عيناه منتفختان تكاد تُخرِجُ لهَباً شئ مُرعِب حقاً بادرتَه أنا بالحديث نعتذر لك يا عم فقد عَلَى صوتنا, سببنا لك إزعاجاً وعَلَى نهجي تأسف باقي أصدقائي أمَّا باسل فقد أصابه نوع من الخَرَسِ لم ينطق بكلمة واحده فهو يعلم جيداً ما سيحدث له بعد أن نتركه . بعد وقت ليس بالقليل من الاعتذارات , والحديث تقبل أسفنا , ورحَّبَ بنا ثم نظر إلى باسل نظرة قاتلة وانصرف فكان لِزَاماً علينا أنْ ننصرف كذلك , نتركهم يخلدوا إلى النوم وحدث ذلك فعلاً

بعد أيام رأينا باسل عيناه منتفختان , وخدوده باللون الأزرق ظننا أنه أصيب في حادث , ولكن فهمنا بعد ذلك أنها آثار ضرب والده له ليلة قبل أمس فهذا جزاء من يوقظ والده من النوم خصوصاً" لو كان كوالدك يا باسل أحياناً تكون تلك المواقف مؤلمة, ومحرجة في وقتها , لكن سرعان ما تتحول لمواقف طريفة نتحاكى بها, ونضحك منها أحياناً فالأحداث المتلاحقة بحلوها, ومرها هي من تكسب الحياة مذاقاً خاصاً قد نعتاد عليه , ونتقبله وهو ما يسمى بالرضا , وقد نثور, ونغضب منه , وهذا ما يسمى بالقنوط فالرضا بقضاء الله هو سبب كل سعادة , ونبع كل جميل حيث يقول المولى عزَّ وَجَلْ في حديثه القُدسِي :

(من رضي بقائي , وصبر على بلائي, وشكر نعمائي كتبته من أوليائي).

نعم صدقتَ يا ربي , فاجعلنا من الراضين بقضائك وقَدَرِكْ .

(3)

(وَضَاعَتْ مَحبوبتِي)

****

في ليلة هادئة , وجو يسوده الحب , ونبل المشاعر, والملاطفة بيني , ومحبوبتي بعد أن تناولنا العشاء وكان ذلك في ليلة أعياد رأس السنة دق هاتفي فإذ برقم غريب, كعادتي لا أرد على الأرقام التي لا أعرفها , ولكن من كثرة تكرار الإتصال كان لزاماً عَليَّ أن أرد فربما يكون أمراًَ هاماً {ألو} من معي ؟ وَعَينَا محبوبتي تراقبني, وأذنها تتعقب أدق التفاصيل هذا الصوت ليس غريباً عَليَّ فقد عرفتُ من الوهلة الأولى أنه (مُراد) فدار بيننا حديثٌ طويل كان الوقت غير مناسب بالمرة ولكن لم أعتد أن أتهرب من أحد خصوصاً إذا كان شخصاً اِعتاد أن أكون لطيفاً معه المهم اطمأن عَليَّ (مُراد) وسألته عن حاله فأجاب : بخير تحسنت أحوالي كثيراً فقد تخرجت من الجامعة , وتقدمت في مسابقة بالقوى العاملة فتعاقدت لمدة عامين , ثم ثبتني الله بالقول الثابت , وبالعمل أيضاَ في أحد البنوك بالقاهرة سألته: عن أحواله , وهل حققت أحلامك ؟ : نعم الحمدلله, لكن لازلتُ أعاني من

مخلفات الطفولة , وبقايا أوجاعي ثم دعوتُ الله له بالتوفيق فشكرني كثيراً , ودعاني لزيارته بمنزله الجديد فقبلتُ الدعوة أنهينا المكالمة , وكانت المفاجأة! لقد تركتْ محبوبتي المكان ظناً منها أنِّي أهملتها خصوصاً أن لقائي بها كان بعد محاولات عديدة استمرت لأشهر , وعندما حان اللقاء أضاعه (مُراد) سامحكْ الله يا مُراد صحيح معرفة الرجال كنوز , لكن ليس في هذه اللحظة غبية هي الأخرى كيف تتركني دون أن تعرف من هذا ؟! إنسان فقير قد عرفته منذ طفولته البائسة يحتاج إلى الشفقة والرحمة , وكان واجباً عَليًّا أن أقف بجانبه حتى يتعافى نفسياً من كبوته ملعون ذاك الفقر أضاع حُلم مُراد و(مُراد) أضاع محبوبتي ! هكذا الحياة لا تعطينا كل ما نتمنى فليس كل ما يتمناه المرء يدركه, ولا ندري أين يكون الخير فقد يكون الظاهر شر, ولكن باطنه يحمل سنابل خير , فالرضا بالقضاء , والقدر سبب كل سعادة فمهما كنت فقيراً ستأتيك السعادة من حيث لا تدري فالصحة سعادة , والعبادة سعادة , والأولاد سعادة , والزوجة الصالحة سعادة بينما المال ما هوإلا وسيلة لتحقيق هذه السعادة فالحمدلله دائماً وأبداً الحمدلله حباً , وشكراً , والحمدلله حتى يبلغَ الحمدُ منتاه .

(4)

(أوجاع مَيَّادَة)

****

ولأن القدر لا يحنو على الصغار , ولا الكبار بل ولا العجائز أيضاً فهذه (مَيَّاده) أنعم الله عليها بلآلئ من الحسن , ونضارة الوجه , ورشاقة القوام , والذكاء الحاد , وهدوء الطباع صفات قلَّما تجتمع في إنثى فقد كانت (ميادة) تسكن بالمنزل المواجه لبيتنا القديم (نعم) تفاصيل طفولتها أعلمها جيداً , وشجار والدتها دائماً مع أبيها عمِّي (ميلاد) بسبب

تبديد ماله على الدخان , والسجائر , وغيرها بل والكحول أحياناً كثيرة فكيف لراتبه البسيط الذي يتقاضاه من عمله كحارس لبعض العقارات أن يكفي متطلبات أسرته التي تزدحم بالبنين الخمسة, وأربعٍ من البنات بخلاف مياده يا لها من حياة قاسية! لا ترحم حتى البراءة , والجمال كثيراً ما كنت أشفق على تلك الأسرة البائسة وخصوصاً ميَّاده لما تتمتع به من صفات تؤهلها لأن تُصبحَ سيدة ذات قيمة اجتماعية , وعلمية مميزة وكانت نَفْسِي تُحدِّثنِي دائماً أن

أدخل ف أعماق حياتها , وأتعرف منها على كَنز , وخبايا بل وأسرار ما تُخطِطُ به لمستقبلها نعم وقد حانت الفرصة عندما كنت جالس مع جدتي أُداعبها , وألاطفها فجدتي (سُندُس) خفة الروح , والداعبة أهم ما يُمِّزها خَرَجَتْ مياده من المنزل المواجه لبيتنا القديم وكنت قد ألمحت لجدتي أني أريد معرفة تفاصيل أكثر عنها فقبل أن تقول : صباح الخير داعبتها جدتي : القمر هَلّ وبان مياده أجمل من بنات الأفلام فتبسمت ميادة مشت متهاديه حتى جَلَسَتْ بجوار جدَّتي , سلمت , وتبسمت المهم ... قُمْتُ , وجَلَسْتُ بجوارها, وتبادلنا الحديث لأكثر من ساعتين ... بدأتها بسؤال : كيف تخططين لمستقبلك وسط هذا الجو المشحون بالصراعات الأُسَرية اليومية ؟ وفاجأني الرد عندما ترقرقت عيناها بالدموع فكفكفتها خجلاً مِنِّي بطرف ثوبها مستقبلي : أدفنه كل ليله تحت وسادتي , وأترحم عليه فحُلمِي يصتدم بفقر أبي , وتبديد أمواله فيما لا طائل منه, وأمي مسكينة مغلوبة على أمرها أقصى ما تتمناه أن يمر يومها بسلام فأخوتي يرهقونها بمشكلاتهم وَصَلَ الأمر بهم إلى معايرتهم لها بفقرها

وأنها الشجرة التي طرحتْ تلك الثمار التالفة تأثرت كثيراً لكلامها حتى أدمعت عيناي معها فمازحتني جَدَّتي , وضمتني لها وقالت : يبدو أن السماء تبكي حزناً عليكما الآن فاكملتْ ميادة حديثها : أفكر كل يوم في الانتحار لكن لا أُريد أن أُنهِي حياتي بإغضاب ربي فيكفيني عذاب القلق , والخوف والضعف الذي ورثته من تفاصيل يومي واستطردت تقول : لا أخفي عليك سراً فداعَبَتْها جدتي كالعادة : سرِّك محفوظ يا ميادة فبّدَّدت دمعتها بابتسامة ممزوجه بالألم وقالت : أراد زميلي في الجامعة أن يأتي لخطبتي فقُلتُ لها : شئ رائع خير البرِ عاجله قالت : لا .. أنت لست غريباً عَنَِي , وتعلمُ جيداً ظروف عائلتي , ووضعنا الأسري , والمادي المهم حاولت إقناعها بالقبول , والموافقه على الخِطبة لكنها رفضتْ وبشده لأسباب أنا أعلمها جيداً , وأخرى رَفَضَتْ أن تَبُوح بها .... فانظر عزيزي القارئ الفارق ما بين مراد , ومياده اجتمعت عليهما نفس الظروف إلا أن مراد لم يضعفْ , ولم يستسلم حاول جاهداً مُتحدياً كل الوحوش , والذئاب التي هاجمتْ حُلمَهُ فانتصرعليها بينما مياده استسلمتْ , وتركتْ أظافرَ اليأس تنهشُ , وتقطعُ في أحلامها . فقط الارادة تصنعُ المعجزاتِ مهما كانت النشأة , والعقبات فلم يولد أحدٌ منا , وفي فمه مِلعقة من الذهب ، ولم يولد أيضاً

من يرضع من الحنظل فالكفة متساوية إذا أخذنا بالاسباب, وغيرنا من أفكارنا , ونظرتنا للواقع فلحظة تفكير عميق قد تُغَيِّر مجرى حياتك للأفضل , ونظرة سوداوية قد تصنع منك تمثالاً أصم. فإذا تصارع أسد مع قط بلا شك , وبدون أي مفاجأت سيفترس الأسد القط بينما إذا شاكس الأسد بني جنسه فالحرب قطعاً متكافئه لذلك يجب عليك عزيز القارئ أن تنمي قدرات , وأفكارك لا تتعلل بالقدر , والظروف فالدعاء يرد القدر , وكذلك الجد , والعمل يرد الفقر بل , ويزهق روحه. كل مِنَّا بداخله حُلم قد نسعى لتحقيقه أخذاً بالأسباب, وقد نتركه حتى يَذْبُلَ , ويموت فهناك من يستيقظ مبكراً للجد والعمل , وهناك من ينام , ويدعو الله بالرزق فهل يستويان ؟ بالطبع لا هذا ما سيتكشف لنا جلياً في الفصل القادم , وحكاية (عَمِّي ميلاد) .

(5)

عَمِّي مِيلاد

****

جلستُ مع عَمِّي ميلاد فقد قررت أن أنصحه بالاهتمام بأسرته , وترك شرب الكُحُول الذي كاد أن يذهبَ عقله, لكنَّه عَنَّفنِي بشدة اِرتعَدتْ مفاصله .. اِحمَرَّ وجهه .. اشتاط غضباً مُعنِفاً لي هل الزمان استدار بظهره كي أخذ النصائح مِنْ مَنْ هو بسن ابني ؟!

فقابلته بابتسامة هادئة , ووضعتُ يدي على مَنكبه قائلاً : الدنيا مدرسة يا عم فكم من صغير عقله بارع , وكم من كبير عقله فارغ فالحياة لا تقاس بالأعمار .... فتبدل حاله, واقتنع بحديثي معتذراً لي عَمَّا بدا منه, وأخذ يُفضِي لي بما في جُعبته قائلاً : يا بني كنتُ مثلك شاباً مثل الورد تزوجتُ من(جميلة) , وكانت اسم على مسمى واحة من الجمال , وخفة الروح ولا أخفي عليك قضينا معاً أجمل أيام حياتنا لكن ضغوط الحياة , والتزامات الأبناء, ومطلبات البنات كل ذلك جعلني غير قادر على مقاومة رتم الحياة المتسارع فتخلَّتْ

جميلة عن صبرها الذي كانت ترتديه منذ أن عهدتها, وبدأت تُزمجِر , ويعلو صوتها , وتشكوني للقريب والبعيد وَصَلَ بها الحال أنها طلبتْ الطلاق أكثر من مره فصَنَعْتُ سعادتي الزائفه بتغييب عقلي لساعاتٍ أهربُ فيها من واقعٍ مرير قاسي واقع لا يعترف بالضعفاء , ولا يرحم عجائز الفكر , والجسد فالناس تحكمُ على ظواهرنا دون أن يدروا بما تُكِنُّهُ قلوبنا التي بين جنبينا فالكل يُصارعُ ذئاب الهموم , وثعالب الحُزن هناك من يمتلك الأسلحة لقاتلها مِثْلُكَ تماماً , وهناك من تسلح بسلاح الاستسلام , والضعف فيعلن انهزامه بل, وانسحابه أمام أول مشكلة . حقاً الحياة لا تعترف بالجبناء , ولا تقبل بضعاف الفكر, والنفوس فقاطعته بابتسامة هادئه : نعم يا عَمِّي ميلاد فكل إنسان بداخله ترسانة هائلة من القدرة , والعطاء ولكن إن وظفها كما ينبغي ليس كما يُحِبُ فتبسم ,وقال : نعم يا حكيم زمانك من يومهما, واحترمت هذا الرجل الذي ينظر الجميع له على أنه مخمور مُغَيَّب بل , هارب من حياته ليس هذا مبرراً لما يفعله فهو تصرف سئ بالطبع لكن قبل أن نحكم على الأشخاص لابد أن نجالسهم

نستمع إليهم فإن لم نستطع أن نقدم لهم يد العون يكفي أن نشاركهم همومهم , ونتعرف عليها . صحيح كم هي قاسية

الحياة ! لا تحنو أبداً على طائر فقد إحدى جناحيه من أجل اسعاد أبنائه, وفي النهاية ترك خلفه أبناء لا يقدرون على الطيران متأثرين بجراح والدهم فجُرح الأبناء أبداً لا يندمل مادامت أعينهم ترى جِراح الأب تنزف طال بنا الحديث لساعات .... فلم أشعر بأنَّ الليل قد انتصف إلا حينما سمعتُ صوتاً من الداخل ينادي يا ميلاد فارتعدتْ مفاصله قائلاً : جميلة , وهرول إلى الداخل حتى دون أن يستأذنني فعلاً المرأة القوية لها هيبة فاقت هيبتَ الرجال فتعجبتُ .. تبسمتُ , وترجلتُ ماشياً إلي بيتي المجاور لمنزلهم , ظللت طوال الليلة افكر في تلك الحَكَايَا التي أراها , وأسمعها فالحياة رحلة تتطلب عمرين فوق أعمارنا كي نتجول في تفاصيل من نعرفهم, وندونها في مذكرات حياتنا .

(6)

دمُوع اِبتـهَال

****

كعادتي , وبعد العصر تحديدا أتجول في شوارع قريتي أحب أن اتصفح وجوه الناس , واتابع همومهم التي ترتسم على جبينهم حيث الوضع الاقتصادي السئ الذي يئن منهم الغني قبل الفقير , وفي نفس الوقت فالمشي رياضة لا بأس بها خصوصاً في فصل الشتاء حيث البرد القارص, وإذا بعينايا تلمح من بعيد زحاماً كبيراً , وأصواتاً يصاحبها ضجيج فهرولتُ مُسرعاً إليهم قاطعاً مشيي الوئيد يا إلاهي!

فتاة في مقبل العمر, ونضارته لم تتخطى الخامسة عشرة من عمرها تلطم خدها .. تندب حظها .. تزرف دموعها أمام الجميع شئ مؤلم حقاً والله. لِمَا كل هذا والكل ينظر دون أن يحرك ساكناً وا أسفاه على قلوب تحَجَّرتْ , ومشاعر تَبلَّدتْ أليس منك رجل رشيد ؟ المهم اقتربت منها وكانت المفاجأة بل والصدمة لي ..! فأنا أعرف جيدا تلك الفتاة (نعم) , وتلك الملامح الملائكية إنها طالبتي بالصف الثالث الإعدادي

(ابتهال) تلك الريحانة التي يعلو وجهها عِطْرُ الابتسامة , ويتزاحم عقلها بكنز من الأفكار, والمعلومات الدينية , والثقافية ما سألتُ سؤالا إلا ورفعتْ إصبعها مجيبة عنه نعم كثيراً ما كرَّمتها عقب كل اختبار في مادة اللغة العربية , وفي إذاعة المدرسة يعرفها الجميع ففقرتها مميزة دائماً ما تقدم النشيد بصوتها الرخيم العذب فأنا أذكرُ مرة غَنَّتْ نشيد قمرٌ سيدنا النبي قمرٌ فأذهلتْ الجميع , وأدمَعتْ عيون مُعلِميها نعم(ابتهال) التي دائماً تقولي لي سأصبح(سميرة موسى) عالمة الذرة المصرية كي أعالج أبناء بلدتي بالذرة كما فعلتْ مع والدتها , وساستخدم الذرة في السلم , وليست في الحروب فتقدم الأمم بالسلم والعلوم , وليس بالجهل, والحروب بعد كل هذا يريد والدها ألا تكمل تعليمها , ويزوجها ما هذا التفكير المجنون! سَمِعْتُ هذا القول من أحد الواقفين بالزحام وعندما رأتني تمالكتْ أعصابها , وحَجَّمَتْ غضبها , ووقفتْ صامته مذهوله من هول الموقف فجميع من في القرية تجمَّعَ أمام منزلها , وسأل عن سبب ثورتها نَظَرَتْ لي بخجل : تفضل يا أستاذي فقاطعها والدها :

من هذا ؟ فقالت : تفضل ياأستاذي فقال في ذهول: من أنت ؟ فأمسَكَتْ أم ابتهال بيدها واصطحبتها للداخل , وبالطبع أُجبِرَ

والدها على أن يدخل معنا جلسنا , ودار بينا حديث طويل حاولتُ جاهداً أن اقنع الأب بأن مستقبل (ابتهال) في التعليم ,وليس في الزواج المُبكِّر, فالتعليم يساعدها على معرفة النافع, والضار, والحلال والحرم , والعلم فوق كل ذلك فريضة فإذا دخلت الجامعة , والتحقت بكلية العلوم كما تحلُم ستشعر أنت بالفخر أكثر منها ابنة (حسام الدين) دخلتْ كلية العلوم بالطبع وأي فخر فهذه من كُلِّيات القمة فعقَّبتْ الأم : كلامك عين العقل والله يا أستاذ يريد أبوها أن يزوجها لابن عمها الذي يكبرها بعشرين عاماً فهو ليس مُتعلِم كل ما يملكه أنه يعمل (بالكويت) , وعنده فداناً من الأرض فقاطعتها : هل أخذتم رأي (ابتهال) فأسرع (حسام) قائلا : البنت ليس لها رأي فأنا من أوافق وأرفض فتعمدتُ ألا أستثير غضبه متبسماً : وهل تضمن أن تعيش ابتهال سعيدة معه ؟ قال : كل بنات القرية يتزوجون بهذه الطريقة أثناء حديثني دخلتْ (ابتهال) , وقد أعدتْ لنا الشاي الذي يُقَدَّم مَشروباً رسمياً في الشتاء , والصيف حتى كاد أن يحرقَ بطوننا جلَسَتْ ابتهال بجوار والدتها التي تشعر أنها بصفها , وأنها لن تقبل أبداً بتلك الزيجة , فقُلتُ يا (ابتهال):ماذا تحبين أن تكوني في المستقبل ؟ فابتسمتْ على استحياء خوفاً من غضب أبيها فهمستْ إلى أمها عالمة ذرة فضحكتْ

أُمَّها , وقالت ابتهال تريد أن تكون عالمة ذر ذر فأكملتُ أنا اجابتها ذرة يا أُمِّي عالمة ذرة مثل الدكتورة سميرة موسى فهي متأثرة بها كثيرا خصوصاً , وأنها متميزة مثلها وذكاؤها يفوق بنات جيلها فنظرَ لي الأب, وكأنه لا يعجبه حديثي , ويرفعُ لي في حاجبيه , ويُجَعِّدُ لي في وجهه مُمتَعِضَاً فقالت خديجة : زوجة حسام, وأم ابتهال : بَرُدَ الشاي لقد أخذنا الحديث , وتناسيناه فقُلت في نفسي: الحمدلله فأنا لا أحب الشاي لو كانت قهوة ما تركتها أبداً . وبعد أن طال بنا الحديث دون جدوى, ونفذ صَبري قُلتُ: يا سيد حسام الدين هل اقتنعت بفكرة بنتك , وبفكرتي أم مازلت مقتنع بفكرتك ؟ فرد غاضباً ابتهال ستتزوج , وقد حدَّدنا العرس بعد عيد الأضحى انتهى الأمر. فصرخت البنت صرخة ظننا أنها شهقة خروج الروح كاد أن يُخْلَعَ فؤادي والله , ودَخَلَتْ مُسرعة إلي غرفتها فأسرعَتْ خديجة خلفها خوفاً أن تفعل بنفسها ما لا يُحمَد عُقباه حينها عَنَّفْتُ الأب قائلاً : إذاً ستضحي بها رغبة في المال ستظل عادات التخلُّف , والرجعية عالقة بأذهانكم , بل ستظل أثواباً ترتدونها إلى أن تواروا بها التراب والله يا حسام ستقاضيك ابنتك أمام خالقك , وستقيم عليك الحُجَّةَ وقتها لا ينفع الندم وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقَلَبٍ ينقلبون . كل هذا ولم يُحَرِّكْ به ساكناً

فقررتُ أن انسحبَ من حوار لا طائل منه غير إضاعة الوقت, وحُرقَة الدم فودعته باللسان بينما يدي أبَتْ أن تصافحَ يده تاركاً ابتهال تصارع بقايا حُلم لطالما رسمته , وعاشته أياما , وليالي كثيرة فاصتدمتْ بأبٍ لا يقدر العلم , ولا يعرف قيمة الأمل فقتل في ابنته كل جميل , وقدمها أضحية لرجلٍ حتماً سيقضي على ما تبقى منها من جسد ألا يعلم ذاك الأب أن وَأدَ العلم في عصرنا الحالي أشد جُرمَاً من وَأدِ البنات في الجاهلية ... ؟ استفيقوا يرحمكم الله . رُحمَاكَ يا ربي ببقايا أحلام , وبذور أملٍ أنت وحدَك تقدر على تحقيقها سبحانك.

(7)

بائِعَةُ الجَّرجِير

****

كم أنتِ ملعونة أيتها الدنيا لا ترفقي حتى بالعجائز الذين بدَّلُوا أقدامهم بالعُكَّاز , وانحنتْ ظهورهم للقِبلَة , وابيَضَّ منهم الشَعر وقاراً , وإجلالاً لهم لما البستيهم ثوب الهوان ؟! ما ذنب أيتها العجوز ؟! التي افترشتْ الطرقات في برد الشتاء القارص تظللها سحائب الخوف , والجوع تجلس على حَجَرٍ صلبٍ قاسٍ جعلته وسادة لها منظر حقاً يُدمِعُ القلب قبل العين .... !

دنونتُ منها جلستُ بجوارها متبسماً : السلام عليكم يا أمُي تعجبتْ ! وقابلتني بنظراتٍ فيها من الألم ما يكفي فهي تعلم ما أُريد , وما سأقوله لها تمتلك من الذكاء ما يكفي لا تريد مِنِّي نظرات الشفقة , وكلمات جبرالخواطر فأعدتُ السلام مرة ثانية : السلام عليكم يا أمُي : مرحباً يا ولدي. بكم تبيعين لي هذا الوعاء ؟ الحزمة بنصف جنية. فاشتريتهم منها ليس لي فيهم حاجة , ولكنها كما يُقال ...

(صدقة مغلفة بالكرامة) فَفَهِمَتْ هي ذلك جيداً تبسمتْ , وقالتْ: لي أبناء مثلك بل أكبر منك منهم الطبيب , والمُعلِّم , ومن يعمل بالخارج سألتها, وزوجك قالت : ادعو له بالرحمة يا ولدي فقد توفي في حرب 73 فأجبتها : نعم إنه بطل ضحى بنفسه لأجلنا , ولا تسألني يا ولدي : لما أفتَرِش الطريق , وأبتاع الجرجير؟ لأني لن اجيبك رجاءً .

شئ مُحَيِّر دار في خاطري , وحدثتُ نفسي لِمَا لا تريد أن تفصحَ لي عن تفاصيل ذلك هل تخشى أن أكون مُخبِراً أتعقبها ؟ المهم تركتها ,ومشيتُ, أردد بصوت عالي :

(الجنةُ تحت أقدام الأمهات . الجنةُ تحت أقدام الأمهات) . فَسَمِعْتُ صوتاً يناديني يكسُوه الوجع : يا ابني فالتَفَتُ خلفي (نعم) ستحكي لي ستخبرني توقعتُ ذلك أيضاً, وقبل أن تتحدثْ مَسَحَتْ عيناها بطرف ردائها , وشهقتْ بصوت عالي فترقرتْ عيناي بالدموع فامسَكَتْ بيدي قائلة : اسمي (نوال) لي ثلاثة أولاد وبنتاً ربيتهم , وعلمتهم بمعاونة زوجي فالأكبر طبيباً , والأوسط مُعلِّماً , والصغير يعمل مُقاولاً بالخارج أما البنت فتزوجتْ منذ خَمس سنوات ,وبعد أن توفى أبيهم خَفَّ سؤالهم عني تدريجياً إلى أن تجاهلوني تماماً

بحُجَّة الظروف والأبناء ,وكذلك مشاغل الحياة , ومن كثرة حزني أُصِيبتُ بعجزٍ في قدمي أجريتُ العديد من العمليات دون فائدة فاقترضتُ من البنك , وتداينُ أيضاً للجيران فرُهِنَ البيت ولم يصبح لي إلا رب كريم , وشارع مُوحِش قاسي لا يرحم العجائز فقاطعتها متعجباً : كل هذا, ولم يسأل الأبناء , ولا حتى البنت فالمعروف أن البنت أكثر شفقة بأمها قالت : لا.. البنت تعلَّلتْ بالأبناء , وأن زوجها لا يريدها أن تزورني يا لها من حياة قاسية حقاً ! هذا يا ولدي ما وودتَ أن تعرفه فجلوسي في الشارع اَتحَصَلُ على قوت يومي أهون من أن اتسول وأمد يدي للغير,اختتمت حديثها(بحسبي الله ونعم الوكيل) قُلتُ أفي أنا يا أمي ؟ !قالت: لا يا ولدي فليس لك ذنب أنت , ولكنِّي أنصحك أن تَبَرَ والديك حتى يَبرُك أبناؤك , واعلم أن الدنيا لا تدوم على حال لا صحة ولا مال . معك حقي يا أُمِّي : فالدنيا غدَّارة فاقتربتُ منها وقَبَّلتُ جبينها , ومسحتُ دموعها بيدي وعاهدتها أن آتي لها كل صباح أُقبِّلُ يدها وأُرَتِبُ لها بضاعتها , وعند العودة من عملي أُحضر لها الغداء فشكرتني كثيراً , وتبسمتْ نعم تبسمتْ حتى بَدَتْ أسنانها التي تآكلتْ كثيراً فوعدتها أن أساعدها في تبديل طاقم أسنانها فازدادتْ انبساطاً , واشرق وجهها وقالت : نعم

الابن البار بوالديه , وسألتني عن اسمي قُلتُ فاعل خير يا أمي .... ولم أزد على ذلك .

فأخذت تردد: نعم (الدنيا بخير. الدنيا بخير) حيث يقول النبي صلَّى الله عليه وسلم :

(الخير فِي وفي أمتي إلى يوم القيامة) . ومن يومها وأنا أزورها كل صباح كي أرسم لها الابتسامة , وأُعوضها عن عقوق , وهجر أبنائها لها لَعَلِّي تُصيبنُي منها دعوة تعانقُ

أبواب السماء فأكونُ من السعداء فالمسافة بين السماء , والأرض دعوة مستجابة كما قال ابن عباس رحمة الله :

(والله لو طُبِقَتْ السماء على الأرض لجعل الله للمتقين فتحات يخرجون منها ألم تقرأ قول الله تعالى :

(ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً , ويرزقه من حيث لا يحتسب) صدق الله العظيم .

اللهم اجعلنا من المتقين البارين بأبائهم , وأمهاتهم , وأحسن لنا الخواتيم .

(8)

حِبيشَة

****

على المقهى المطل على النيل يجلس (حبيشة) واضعاً قدماً على الأخرى , وفي يده الشيشة التي لا تفارقه ذلك الشاب نحيف الجسد أسمر اللون شاحب الوجه ذابل العينين شعره مُجَعَّد يشبه حلقات البيلاستك السوداء, فقد أهملَ تعليمه , واتخذ لنفسه طريقاً أخر محفوفاً بالمخاطر ليس له وحسب بل ولأسرته أيضاً فقد قرر أن يبيع السموم لشباب قريته فيجتمعون حوله أخر الليل يبتاعون منه البانجو, والحشيش, والهروين وغيرها من السموم البيضاء والحمراء يبددون كل أمولهم ليلاً على المقهى , وتتعالى ضحكاتهم , وصيحاتهم كأنهم عبدة للشيطان ! إن لم يكونوا كذلك فعلاً فالشيطان أصبح رفيقاً لهم ,وبئس الرفيق حتى ضَجَّ أهل القرية جميعهم من تصرفاتهم الصبيانية ليلاً , ونهاراً , ومغازلتهم لفتيات ونسوة القرية حتى الأقارب منهن شئ مؤسف حقاً إنهم كسرطان تفشى في جسد المجتمع ويحتاج لتدخل فوري لاستئصاله وإلا سنهلك جميعاً دون

استثناء وفي يوم من الشتاء القارصة استيقظنا على صوت الشيخ (عبدالله) ينادي في المسجد , ويترحم على ذاك الشاب الذي لم يتعد حتى السابعة عشرة من عمره , والجميع مندهش لذلك الخبر فلم يكن مريضاً, ولم يصبه حادثاً, ولأن لكل ميتة سبباً تقصينا الحقائق لنعرف ما الخبر فاخبرنا أحد أصدقائه المقربين منه ويدعى (زاهر) أنه تناول جرعة زائدة من الهروين فقضت عليه يا إلاهي ! هذه عاقبة كل من يسلم نفسه للوهم والضياع كيف سيلاقي ربه بماذا يجيب؟ ومن المحامي الذي سيترافع عنه وما مصيره الآن ؟ كل هذه الأسئلة لو طرحها على نفسه لما كانت نهايته بهذه البشاعة, وأين أصدقاؤه ؟! من تجار الوهم لم يأتوا حتى ليحضروا جنازته لم يأتوا ليودعون رفيقهم لقد هرب (حبيشه), ومن معه خوفاً من بطش أهالي القرية نعم هربوا لكي يبيعوا الوهم في مكان أخر فبئست البضاعة, وبئست الصداقة فلكل بداية نهاية , ولكل نهار سواد ليل فاعمل لنفسك يا ابن آدم فإنك مُفارِق طالتْ أم قصرتْ ستدخل بيت الدود وحيداً غريباً لا أنيس , ولا جليس إلا عملك إمَّا ثعباناً أقرعاً يلدَغُك , وإما روح وريحان وجنة نعيم نسأل الله الأولى ونستعيذ به من الثانية فنكون من السعداء .

(9)

عابد

****

اسم على مسمى شاب جميل الخلق , والخلقة عفيف اللسان مُشرِق الوجه دائم الابتسامة فهو يعلم جيداً أن الابتسامة في وجه أخيه صدقة بل, ومن أعظم الصدقات مُداوِمَاً عَلَى صلواته الخمسة بدءاً من الفجر, وانتهاءً بالعشاء شاب نادراً ما تجد مثله في زماننا فالكثير بالطبع سيصفه بالرجعية بل, والتخلف أحياناً ذنبه الوحيد أنه حافظ على تعاليم دينه خَصَّصَ وِردَاً يومياً لقرأة القُرآن الكَريم قبيل صلاة الفجر اِعتاد زيارة الأهل والأقارب , وصلة الأرحام التي قطعنا حِبالها الدائِبة في أيامنا عرف عابد أن الصدقة تطفئ غضب الرب , وأنها تداوي المرضى فحرص على اخراجها كما عرف أن أركان الإسلام خمس شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله , وإقام الصلاة , وإيتاء الزكاة , وصوم رمضان , وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) .

فطبق تلك الأركان, وعمل بها تعلم عابد منذ صغره في مدرسته الابتدائية على يد مُعلمته (فاطمة) أن التَكَبُّر صفة ذميمة لا يحبها الله , ورسوله, ولا حتى كل إنسان يتمتع بفطرة سليمة فقد قال الله تعالى : (ولا تُصَعِّر خَدَّكَ للناس ولا تمشِ في الأرض مرحاً إن الله لا يُحِبُ كُلَ مُختالٍ فخور) فطبق تعاليم تلك الأية , ولكن لأن الحياة لا نعيشها كما نتمنى , وليس كل من يسكنها ملاك مُحِب لغيره فلم يسلم (عابد) من المضايقات فهذا جاره (هوّاَري) دائماً ما يقول له مستهزئا : صلِّ لنا معك ركعتين خذنا على جناحك يا عم الشيخ اقرأ لنا أيتين شئ غريب جداً ولِمَا لا تصلِّ أنت لنفسك؟ وهل عابد طائرة نفاسة حتى يأخذك على جناحيه؟ وهل أنت كافر مشرك بالله حتى يقرأ لك آيتين؟ وأسفاه على مسلمين أضاعوا أنفسهم قبل أن يضيعوا اسلامهم أنهين ونستهزي بهذا الشباب التقي النقي الورع ؟ ونمتدح , ونقلد الشباب التافه الأبله! الذي يقضي ليلة على الهواتف المحمولة على مواقع التواصل الاجتماعي الفيس, والتويتر, والانستجرام يراسلون الفتياة العاريات اللأتي تجردن من

كل شئ حسي , ومادي حتى من أسمائهم الحقيقية لتستخدمن أسماءً مستعارة فتجد (تفيدة) تسمي نفسها

كارمن و(مسعدة) تسمي نفسها سالي و(شوقية) تسمي نفسها شوشو ماهذا السَّفَهُ الأخلاقي , والمجتمعي الذي أصبحنا ونمسي فيه ؟ شئ مؤسف , ومؤلم والله! أليس مِنَّا رجلٌ رشيد؟ ينقذ،شبابنا, وبناتنا بل ونسائنا وحتى عجائزنا الذين خارت أجسادهم , وخابت عقولهم الكل يسهر للفجر يراسل , ويمازح , ويلاطف وعندما يقول المؤذن الله (أكبر الله أكبر) نَصُمُ أذاننا,وعندما يُقال (الصلاة خير من النوم)... ننام سبحان الله أتتحدى خالقك الذي يعلم كل خباياك ؟! فالصانع يعرف كل تفاصيل صنعته فمابالك بخالقك أيها الغافل الآبله الغبي؟!

نَمْ فقد تكون أخر نومة لك, وتكون ضحكت على نفسك , وليس على ربك . وقتها قدم مبرارتك , وأعذارك الحقيقية قدم أدلة براءتك لعلك تنجو وأظنك من الهالكين لانك لم تراعِ حُرمَة العرض, والدين فالكون له رب يدبر شؤونه ليس يدار عبساً ولا مصادفةً فلو أقمت منزلاً بلا أعمدة حتماً سينهار السقف على قاطنيه فتأمل وتدبر تلك السماء التي رُفِعَتْ وشُيِّدَتْ بلا عَمَدْ مَنْ المهندس البارع الذي رسمها ؟ ما هي الألة العملاقة التي رفعتها ؟ أين الفُرشاة السماوية التي دهنتها ؟ من الذي ينير القمر ليلاً ويشعُ الشمس صباحاً ؟

بالله عليك أجبني ...! لما الصمت ! ألا تجد جواباً أَمْ تعترف , وتُقِرُ بأن هناك رب خالق قادر آمر ناهي له الملك وإليه ترجعون سبحانك أشهد ألا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك .

(10)

اليمامة المسكينة

****

اِسْتَيقَظَتْ مُبكراً تبحث في كل مكان تغيب لفترات ثم تعود حامله بين أرجلها , وفي ثنايا فَمَّهَا أعواداً من اَلقَشِ , وتصعد بها في أعلى شجرة (اِلفِيكَسْ) التي تظلل بيتنا لا تكل ولا تمل , ويعاونها زوجها تلك اليمامة بُنيَّة اللون بها طَوق أسود يزين عُنقها , وزوجها لا يختلف عنها كثيراً نعم فأنا أتابعهما جيداً منذ أن استوطنا تلك الشجرة فعلمتُ أنهما أوشكا على الإنجاب , وأن اليمامة تصنع ذلك العُش لتضع به بيضها يبدو عليها ذلك فهي حائرة تحاول أن تنتهي من صنع العُش سريعاً وبعد أياماً مِنْ العمل والنشاط اِنتهيا بالفعل من صنع العُش , وغابت اليمامة أسبوعاً لم أرها فقد اِعْتَدتَ رؤيتها كل صباح قبل أن أذهب إلى عملي , ولأني أحب الفضول تسلقتُ أعلى الشجرة لأراقبُ الوضع فوجدتها نائمة نعم لقد وضعَتْ البيض وبعد أسابيع قليلة ستصبح أُمَّاً أمنية ستتحق لها كم هي محظوظة , ولكن زوجها غائب منذ أسبوعين بعد بناء العُش بيومين يبدو أنه أصابه مَكروهاً...!

قلبي يحدثني ذلك لطالما تمنَّى أن يصير أَبَّاً بحثتُ عنه في كل مكان لَعَلِّي أساعده في العودة لبيته فتنتظره زوجته المسكينة ,وأبناؤه الذين يخرجون للنور بعد أسابيع قلائل, وبعد محاولات للبحث غير المجدي عنه تذكرتُ ذاك الطفل الشقي المشاغب المُولِع بصيد العصافير بالفَ َخِ الذي ينصبه فوق سطح المنزل , ويغطيه بحفنة من التراب , وينثر فوقه حُبوب القمح , وقررتُ أن أستدرجه بطريقة تجعله يعترف , ويُقِرُ لأنه مَكَّار كالثعلب رغم صغر سِنه هذا المشاغب الصغير فقلتُ له لقد اصتدتُ يمامة جميلة للأسف فَقَدَتْ زوجها مَنْ يدلُّني على زوجها سأعطيها له كي يربيهما معاً فصاح عَلَى الفور المشاغب أنا اِصتده منذ أسبوعين فَسُرُرتَ أنا بذلك جداً , قائلاً له إذاً خُذْ هذه اليمامة , وربهما معاً , لكن بشرط أن تُرِيه لي حتى أطمئن , وأتأكد مِنْ صدق حديثك فضحكَ ذلك المجنون بصوت عالي وأشار إلى بطنه فتبسمتُ: ما بك يا زيد أبطنك تؤلمك ؟ فضحك أكثر وقال : لا.. ذَكَرُ اليمامة أقصد أنا أكلته كان طعمه لذيذاً مثل السِمَّان يا إلاهي ! أتمزح أيها الطائش أكلت زوج تلك المسكينة

التي ترقد على البيض, وتنتظر وليدها يا لك من غبي أُغرُب عن وجهي قبل أن اقتلك فَجَرَى وهو يضحك : أكلته أكلته

طعمه جميل كالسمان فعدتُ غاضباً , ووَضَعْتُ تلك المسكينة على بيضها , ولأن الحياة أقسى مما نتصور , وأقسى مما فعله(زيد) قبيل المغرب أتى صَقراً هاجم اليمامة , فهربت فأكل صغارها منذ أول يوم لهم في هذه الدنيا القاسية , وبالليل تلبَّدت السماء بالغيوم رَعَدَتْ أمطرت , فدمرتْ العُش لتنتهي حياة عائلة مسكينة حاولت, ورسمتْ, وخططت , وعملتْ بجدٍ , وَبَنَتْ بيتاً , واقترب حُلم تكوين أسرة , وحياة سعيدة ، فقتل زيد الأب , وافترس الصقر الأبناء بينما دمرتْ الأمطار ما تبقى مِنْ حُلم لتلك المسكينة التي فَرَّتْ إلى عَالَمٍ مجهول تواسي نفسها, وتترحم على صغارها , وزوجها اجتمع عليها قسوة البشر مع قسوة الطبيعة رحماك يا رب !

(11)

لَطَمَتْ خَدِّي

****

لَطَمَتْ خَدِّي فأصبحت طبيباً هكذا بدأ الدكتور (ممتاز) حكايته لي عندما زُرتُه في عيادته كي أطمئن منه على ضِرسي الذي يؤلمني كثيراً وعَلِمَ أني مُولَعَاً بالأدب , وكتابة القصص , والروايات قالي لي وهو يُعَقِّمُ الأجهزة مُسْتَغِلاً" جلوسي معه , وقد كنت أخر كشفاً له (التحقت بالمدرسة الإبتدائية , وفي أول أسبوعِ من الصف الأول وبالتحديد في

حصة الإملاء اخرجتني الأستاذة (صفاء) أكتب كلمة(طبيب)

فمن الرهبة , والخوف كتبتها (طيب) فتحولتْ أنوثتها وقد كانت فاتنة مَلِيحَة الوجه إلى وحش كاسر قالتْ : (حيوان غبيٍ), ولطَمَتْ خَدِّي أمام زملاء فصْلِي أهانتني نعم قد تكون مُحقَّة , وقد تكون أخْطَأتْ هي أيضاً فأساليب التعليم الحديثة لا تقبل بالضرب , والإهانة ,وكعادتنا بالماضي كُنَّا لا نُخبِرُ الأهل بما يحدث لنا في المدرسة فَكُنَّا نخشى بطشهم أيضاً

من يومها عاهدتُ نفسي أن أكون طبيباً, وأعود إلى معلمتي وأخبرها بذلك بعد عُمْرٍ طويل فتبسمتُ أنا , وَقُلتُ:

(لطَمَتْ خَد جعلتك طبيباً , وضربتْ عصا جعلتني مُعَلِّمَاً فضحكَ دكتور ممتاز, وقال إذاً تأثير اللطم كان أقوى له عامل السحر, وكان الدكتور ممتاز قد عَقَّمَ كل الأجهزة فقال لي : أكمل وماذا بعد ضرب العصا ؟ قبل أنْ أفحص لك أسنانك نعم سأكمل : فأنا موقفي يختلف عنك قليلاً "فَفِي المرحلة الثانوية كنتُ أكتبُ الخواطر جيداً, ويثني عَليَّ أصدقائي كثيراً بنين, وبنات , ولكن مُعَلِّمَ اللغة العربية كان يكرهني كثيراً , ويُحبطني لا أعلم لماذا ؟ ولا بأي ذنب اِقتَرفْتُ أظن أنه كان يغار مني. فتبسم دكتور ممتاز نعم بالطبع كان يغار منك يخاف أن تسحبَ البُسَاطَ من تحت قدمه, وخصوصاً أنَّ لك معجبات بالفصل لا تُضحِكني يا دكتور: لا لا ليس كذلك أعتقد , ولكني لم أعرف السبب إلى الآن أذكر أخر مرة قُلتُ قصيدة في الإذاعة المدرسية عن الأمل , وبعدها أراد أن يقتل فِيَّ الأمل مُقبِلاً عَليَّ قائلاً : هل هذا شعر أم كلمات متقاطعة ؟ فتبسمت قائلاً بل شعر موزون ,ومقفى بشهادة الجميع فَعنَّفَنِي , وضربنِي عصا, ومن يومها عاهدت نفسي أن أقرأ لكبار الشعراء , وأطَّلِعُ على مؤلفاتهم, وقد كان , والحمدلله,

فمكتبي به من الجوائز, والأوسمة ما لو رأها معلمي الآن لراجع تفكيره , وأقَرَ بأنه كان مُخطِئاً في تقديره لموهبتي التي تفجرتْ مُبَكِّراً.

كل هذا , والدكتور ممتاز يستمع يبتسم أحياناً , ويمتعض أحياناً , فقد تأثر بحديثي كثيراً ثم داعبني : حان وقت العمل ,وفحص أسنانك لا تخفْ, وَفَحَصَ أسناني قائلاً : أعتذر لك يا صديقي سأخذ منك ضِرسَاً اليوم لقد تركته حتى أكله السوس , ونخرَ في جِداره : لا لا يا دكتور لا تخلعه اِحشيه أرجوك. قال : لقد تأكل لا حَل له سوى الخَلع. أمري لله : اخلعه ؟! ضرب العصا بالمدرسة كان أرحم من ألآم أسناني, فضحك دكتور ممتاز, وبعد أن خدرني لم أشعر إلا وهو يقول : ألف سلامة يا بطل لا بأس عليك فشكرته مشيراً برأسي , وصافحته ثم عُدت إلى منزلي أخذتُ مُسَكِنَات من شِدَّت ألألم , ثم نمتُ , وفي الصباح كانت المفاجأة دكتور ممتاز خلع لي ضرس العقل يا له من شئ مخيف فعلاً ! ليس هو المصاب إذاً ما العمل هل أُصَابُ بالجنون فعلى الفور اتصلتُ به فرد قائلاً : صباح الخير أظنك أفضل الآن يا بطل.. عن أي بطولة تتحدث يا دكتور لقد خلعتَ لي ضِرسَ العقلِ فقهقهَ بصوت عالٍ ههه ,ولكن تُحدثني جيداً بكامل قواك العقلية . يا دكتور

أنا لا أمزح فقال لي : مُرْ عَليَّ بعد يومين حتى يكون أثار الألم قد انتهى, وبالفعل عُدته في الموعد المحدد ليكتشف أنه خَلَعَ ضِرس العقل فعلاً" فتعالت ضحكاته مره أخرى ممازحاً لي: لابد أن نُضَحِّي في حياتنا بالغالي , والنفيس كي تستمر عَجَلَة الحياة , والخطأ وارد فأنا قُلتَّ لك من البداية أخطأت في كتابة كلمة طبيب فكان لِزَامَاً عليك أن تفهم أني لا أجيد مهنة الطب . فضحكتُ أنا قائلاً: نعم فالسبورة , وفمِّي أصبحا حقلا تجارب لك تحاكينا , وتمازحنا لساعات , وأثناء وداعي له أخبَرَتْهُ الممرضه بأن مريضاً حان دَورُه فتركته , وأنا أقول في نفسي: ضَحية جديدة ستفقُد عَقلها على يدك يا دكتور ممتاز. فانظر يا صديقي لَطْمَتْ خَد صنعتْ منه طبيباً وضربتْ عصا صنعتْ منِّي أديباً. بتأمل هذه القصص , والحكايا نَخلُصُ إلى حقيقة مهمة ألا وهي ... عدم الاستسلام , والضعف أمام العقبات , والرغبات , والتخلي عن الكسل ,

الاستجابة لاحباطات الغير فلن يخاف عليك إلا نفسك , ولن يخطط لمستقبلك إلا أنت فالحياة محطات , والدنيا قطار سريع إنْ لم تُجِدْ قراءة العناوين جيداً , وسريعاً بالطبع تتوه في زُمْرَةِ الزحام , ويأخذك ذلك القطار إلا أخر محطة يتوقف فيها فتجد نفسك وحيداً لا أنيس , ولا جليس سوى الهم ,

والخوف , والقلق والوساوس . تأمل يا صديقي في قصة سيدنا شعيب مع يوسف عليه السلام , وأُخوتِه رغم محاولات أبنائه خداعه أن الذئبَ قد أكله وجاؤوا على قميصه بدمٍ كذب إلا أن أبيهم شعيباً عليه السلام لم يضعف , ولم ينخدعْ بأكاذيبهم وحُجَجِهِم الواهية متمسكاً بالأمل, والثقة في الله , وأنه يوماً ما سيرى فَلَذَةَ كَبِدِهِ يوسف عليه السلام نعم إبيضَّت عيناه من الحزن عليه , لشدة تعلقه به , فلجأ إلى ربه متضرعاً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المُستَعَانُ على ما تصفون . فماذا كانت نتيجة الصبر؟ رَدَّ اللهُ عليه يوسفَ , ورَفعَهُ على العرشِ إجلالاً, وتعظيماً" لقدر أبويه , ومَلَكَ يُوسُف خزائن الأرض . إذاً ردد معي صديقي القارئ , وعزيزي المستمع لمن يقرأ: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المُستَعَانُ على ما تصفون.

(12)

عَلَّمَتنِي نَمْلَة

****

في ذاك المكان الذي اِعتَدتُ أن أجلس فيه بحديقة المنزل حيث الهدوء .. جمال المنظر .. وورورد فياحة , أشجار مثمرة , نخيل مثقلة عراجينه بحبَّات التمر الصفراء منها , والحمراء تشبة الياقوت , والذهب , وأصوات خرير الماء

أثناء تناولي وجبة الإفطار تساقطت منِّي لُقَيمَة صغيرة

(قطعة حبز) أبيض , فإذا بنملة صغيرة يبدو عليها الوهن , والضعف من فرط حركتها أسرعتْ صوب قطعة الخبز , حاولت جاهدة أن تحملها بيدها وقدميها بل وحتى بفمها إلى حيث جُحرها , ولكنها لم تستطع نظراً لضألتْ حجمها فانصرفت , وما هي إلا لحظات حتى عادت , ومعها تسع نملات من بني جنسها , ولكن أكبر منها قليلاً يرتسم على وجههم الابتسامة , والأمل , تتسارع خطاهم قوة .. نشاط , وإرادة تعاونوا , اتحدوا سوياً على حمل تلك الوجبة الدسمة بالنسبة لهم ... شئ عجيب حقاً ! فكيف لتلك الجسوم

الهزيلة الضئيلة أن تحمل أشياء تفوقها بأضعاف كثيرة ؟! بلاشك إنها الإرادة يا عزيزي .. المهم حاولوا جاهدين بكل ما أتوا من قوة بالأيدي , والأقدام , وحتى بأسنانهم البالية , لكن دون جدوى فتركتهم القائدة منسحبة تاركة خلفها البقية فيا ترى إلى أين أنتِ ذاهبة ؟ , ولما تغادر وحيدة ؟ يبدو لي أن هناك سراً .... وبعد دقيقة واحدة عادت القائدة , ومعها جيشٍ جرار من النمل أسراب تتسارع بنظام دقيق فالكل يعرف مهامه جيداً , والدور المطلوب منه أدهشني الموقف ظننت أنهم قادمون لمحاربة التتار .. الفرنج , بل قُلْ والروم تقدمتْ القائدة وتبعها أربعة عشر فرداً يحاولون حمل الوجبة الثمينة بالنسبة لهم يا إلاهي .. من أين لهم بتلك القدرة !, ما هذة الإرادة لقد حملوها وساروا بها إلى حيث جحورهم بل منازلهم يبدو أنهم بعدها سيقضون بياتهم الشتوي . فتبسمتُ مندهشاً من إصرارهم , وعزيمتهم , وتماشيتُ نحوهم ببطء لكنِّي سُرعان ما تراجعتُ خوفاً أن تخاطبهم تلك النملة وتقول لهم : يا أيتها النمل اِدخلوا مساكنكم مثلما فعلتْ مع نبي الله سليمان عليه السلام , فظللتُ بعدها أفكر , وأتأمل النملة حاولتْ , وأصرتْ على تحقيق هدفها , وأن تَحْصُلَ قوتِها , ورزقها مهما كلفها الأمر , ولو كانت حياتها نعم كذلك التعاون , والوحدة بينها , وبني جنسها , فقُلتُ في

نفسي ليس عيباً أن أتعلم من نملةٍ الإصرار , والطموح , والأمل , والحب , والتعاون , وعدم الاستسلام واليأس أمام أول مشكلة نواجهها نعم فالنملة لو لم تكن تعقل , وتفهم لما حدَّثَتْ بني جنسها , وحذرتهم من سليمان عليه السلام , وجنوده . ما الذي دفعها لذلك ؟ غير خوفها , وحرصها عليهم , فلماذا نحن البشر أصبحنا كالريشة تتقاذفها الرياح كيفما تشاء ؟ ننام , ونطلب من الله الرزق , ونحن نعلم جيداً أن السماء لا تُمطر ذهباً , ولا فضة لما كل هذه العداوة , والتشاحن , والبغضاء فيما بيننا ؟ حتى داخل الأسرة الواحدة بل لا تتعجب إنْ قُلت لك داخل النفس الواحدة لما التشتت في الفكر ؟ أصبحنا ليس لنا قائد لا نتحترم أراء بعضنا البعض , فالكل من يظن أنه أعلم أهل الأرض , وأنه الصواب والجميع في نظره مخطؤون لما نتصارع مع بعضنا لأتفه الأسباب ؟ لما .. لما .. لما ؟! أسئلة كثيرة تدعونا لأن نراجع أنفسنا قبل فوات الأوان فليس عيباً أبداً أن نتعلم من نملة , ومن حبي للفضول قررت أن أذهب أتابع سير جيش النمل , وماذا فعلوا بالوجبة الدسمة , لكن للأسف لم يستمتعوا بها كثيراً حيث هبط عُصفوراً اِلتقطتها منهم وطار هارباً . تباً لك أيها العصفور , فأنا لا أُنكِرُ أنِّي أحبُ العصافير لكن هذه المرة لا .. لأن العصفور أخذ مجهود , وتعب , وعناء غيره الذي

استمر لأكثر من الربع ساعة حقاً الحياة قاسية لا تحنو على أحد , ولا ترحم الضعفاء , فكن قوياً تعش سعيداً .. إياك أن تتضعف حتى لا تكون ضحية لدنيا وارثْ فيها كثيراً من الضحايا دفعوا حياتهم ثمناً لتخاذلهم , وعدم التسلح بالعلم , والعمل , والدين , فسلاماً على نفوسٍ أرضت ربها , وبرت والديها , وسعت جاهدةً لتحقيق أهدافًها فكانوا من السعداء في الدارين .

السيرة الذاتية

****

زكريا ضاحي توفيق محمد

مواليد / القوصية / أسيوط

يعمل معلماً للغة العربية – ليسانس

دار العلوم / جامعة المنيا / ملقب بشاعر الغلابة

حاصل على أوسمة ذهبية في مجال شعر العامية

من : 1- مؤسسة عبدالقــادر الحسيني الثقافية

2- مؤسسة ضياء الجبالي للثقافة والفنون

3- نقـابة شعـراء مصـر تحت التأسيس

4- فريق بكــرة أحلى لرعــاية المواهب

للتواصل موبايل / 01093898393

للتواصل فيس بوك / شاعر الغلابة

محتوى الكتاب